

مع أبي القاسم سعد الله.

~~~~~ أ.د. عبد القادر خليفي \*

يعتبر أبو القاسم سعد الله من أبرز الكتاب المعاصرين الجزائريين في التاريخ والأدب والفكر. مارس التعليم والكتابة في مجالات مختلفة، وترك تراثاً علمياً لا يستهان به. سيبقى ذخراً للأجيال القادمة على مر الأيام.

كانت لي معه اتصالات في مجال التدريس والبحث العلمي كطالب ثم كباحث يرغب في الاستزادة من التراث الجزائري بمساعدة مؤرخنا هذا. اتصلت به عبر أربع محطات سافصل فيها فيما يلي من الصفحات، نستشف منها شخصية الرجل السلوكية والعلمية في آن واحد. أولاً: بصفته أستاذاً: تم تدشين جامعة وهران - السانبا من قبل الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي وزير التربية الوطنية في 12/12/1966 على أعقاب ثكنة عسكرية.<sup>1</sup> وكانت مادة التاريخ والأدب هما المادتان اللتان تم افتتاحهما للدراسة باللغة العربية ابتداء من السنة الجامعية 1968-1969. وفي السنة الموالية 1969-1970 التحقت الدفعة الثانية في التاريخ والأدب والأولى في الجغرافيا. وتوالت بقية الاختصاصات المعربة في السنوات الموالية.

كان نظام التعليم في الليسانس يدوم ثلاث سنوات، يبدأ بالسنة الأولى حيث يدرس الجميع مواد مختلفة في التاريخ والجغرافيا والأدب والفلسفة واللغة الفرنسية.. وفي السنة الثانية والثالثة يكون التخصص من خلال أربع سدايسات؛ فالتخصصون في التاريخ مثلاً، يدرسون ثلاث سدايسات مواد تاريخية وسدايسي واحد يدرسون مواد جغرافية، والعكس بالنسبة لطلاب الجغرافيا (ثلاث سدايسات مواد جغرافية وسدايسي واحد مواد تاريخية).

كان جل أساتذة هذه المواد من المشرق العربي باستثناء أستاذين جزائريين هما الأستاذ صم منور أستاذ التاريخ وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الوقت نفسه، والأستاذ طواع أحمد أستاذ الفلسفة. وقد استعانت كلية الأدب والعلوم الإنسانية بالأستاذ أبي القاسم سعد الله من جامعة الجزائر ليقوم بالتدريس في وهران كأستاذ زائر في مادة التاريخ سنة 1970. وكانت مادة

\* أستاذ التعليم العالي - قسم التاريخ وعلم الآثار - كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية - جامعة وهران.

التدريس هي الثورة الروسية (البشفية). فكان أن تلقينا من الأستاذ بعض الدروس حين كان يعمل بجامعة الجزائر مدرسا ومشرفا على قسم التاريخ فيها.

كان الأستاذ أبو القاسم سعد الله مرنا خلوقا، يتحدث مع الجميع ويستمع إلى الجميع، ويجب عن كل تساؤلات الطلبة. كانت دروسه جذابة غير منفرة، يحس المرء أنه منجذب إليها بطواعية ورغبة.

تلقينا عنه بعض الدروس لكننا، بحسب ما أذكر، لم نمتحن في تلك المادة. ما أزال أحفظ ياحدى محاضراته حول "تاريخ الثورة الروسية" التي ابتدأها من سنة 1825 حين انتهى حكم القيصر الإسكندر الأول وبدأ حكم القيصر الأول وثورة بعض الضباط الفاشلة، وتوالى الأحداث من انقلابات وإصلاحات في عهد القيصرية. كما حدثنا عن الحركات السياسية والثورية مثل الأفكار الاشتراكية التي سادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والتي مهدت لثورة 1917 عن طريق الجرائد والمجلات السرية في الخارج.

كان الأستاذ في كل ذلك وقورا يجذب الانتباه بأسلوبه ونبرات صوته الملفتة للنظر مما يجعل الطالب يتبع دروسه المشوقة بصوته الهادئ الرصين.

ثانيا: زيارتنا له في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954: يوجد هذا المركز في حي الأبيار بالعاصمة، وهو تابع لوزارة المجاهدين، يعنى بالمسائل التاريخية المرتبطة بالحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954. يقوم المركز ببعض الأنشطة كعقد الملتقيات والندوات العلمية ونشر المؤلفات وإعادة نشرها وجمع الشهادات وطبع الكتب والمذكرات والرسائل الجامعية، ويصدر المركز مجلة سداسية تدعى "المصادر" تجاوز عددها الآن العدد 22.

وقد أصدر حتى اليوم كما هائلا من العناوين حول الموضوعين المذكورين (الحركة الوطنية والثورة التحريرية)، وطبع الكثير من أعمال بعض المفكرين الجزائريين (أبو القاسم سعد الله - يحي بوعزيز - أحمد توفيق المدني - جمال قنان - عبد الرحمن العقون - أبو العيد دودو - آثار ابن باديس - آثار محمد البشير الإبراهيمي..). وبخصوص أستاذنا فقد جُمعت أعماله في واحد وعشرين (21) مجلدا تحت إشراف وزارة المجاهدين، وتم طبع بعض المجلدات في مجلدات كـ (الشهاب - البصائر).

ويقوم المركز بين الحين والآخر بعقد ملتقيات وندوات حول مواضيع معينة في الحركة الوطنية أو في الثورة التحريرية ينشطها أساتذة أكاديميون من مختلف جامعات الوطن، وفي حالة الثورة

التحريرية يتم دعوة المجاهدين الفاعلين للإدلاء بشهاداتهم في الموضوع المطلوب. ويقوم المركز بطبع أعمال هذه الملتقيات والندوات، لتصبح في متناول الباحثين فيما بعد.

ومن المواضيع التي تعرضت لها هذه الملتقيات غثل لذلك بما لدينا منها وهي كالتالي: الدبلوماسية الجزائرية من 1830 إلى 1962- التجارب النووية في الجزائر- فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية- التسليح والمواصلات أثناء الثورة التحريرية- الإعلام ومهامه أثناء الثورة التحريرية- القضاء إبان الثورة التحريرية- دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية- كفاح المرأة الجزائرية...

استقبل المركز الأستاذ أبا القاسم سعد الله للعمل فيه بعد عودته من الأردن، وهذا بعد سنة 2004، وتسلم مكتبا خاصا، وانطلق في العمل فيه للبحث والدراسة مما يفيد المكتبة الجزائرية، وبخاصة ما يتعلق بالحركة الوطنية والثورة التحريرية التي هي من اهتمامات المركز الأولى، وقد أمهى الأستاذ الجزء العاشر من تاريخ الجزائر الثقافي عن مرحلة الثورة التحريرية.

ومن المعلوم أنه كتب ثلاثة أجزاء (أولى) من تاريخ الجزائر الثقافي، ونشرها في الثمانينيات من القرن العشرين بالمؤسسة الوطنية للكتاب، وخصها للفترة الممتدة من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م). وفي سنة 1998 نشر طبعة أخرى من ثمانية أجزاء بدار الغرب الإسلامي ببيروت، وأتبعها بالجزأين التاسع والعاشر فيما بعد.

وكان الراحل قد أضاع محفظته التي تحوي مخطوطاته المليئة بالوثائق الثقافية والمستندات والوثائق الشخصية عن الحركة الوطنية وعن تاريخ الجزائر الثقافي سنة 1988 بمطار هيثرو-لندن. وقد سمي هذه الحادثة بـ "النكبة الثقافية"، وكان أقسى ما أسف عليه هو يومياته التي كان يكتبها بالتفصيل، وبها ملاحظاته وتسجيلاته المتنوعة. ورغم ذلك فقد تمكن من تجاوز تلك "النكبة" والاستمرار في إنهاء عمله بكل صبر وأناة.

يذكر رابح لونييسي أن الأستاذ فضّل دراسة تاريخ الجزائر الثقافي بكل جوانبه لاقتناعه بأهمية الثقافة في عملية بناء الأمم، أي أن الشعب الذي يتمتع بشخصيته الثقافية محمي من الذوبان في غيره. وكان يرى أن هناك تغطية نسبية للتاريخ السياسي والعسكري، وفي المقابل هناك ثغرات في مجال الحركة الوطنية والتاريخ الثقافي الجزائري، وهي ثغرات رآها تمس الذاتية الوطنية. وأنه "كان يتمنى إعادة النظر في كثير مما ورد في جزئه العاشر الذي تم تحت ضغوط شتى".<sup>2</sup> كما أنه تأسف

لكون الإعلام الثقافي لا يولي أهمية لهذا الجهد، أما الإعلام الوطني المكتوب باللغة الفرنسية فيضرب حصارا على تاريخ الجزائر الثقافي.

وقد ركز الأستاذ أبو القاسم سعد الله على الثقافة المكتوبة بالعربية أو ما يدعى بالثقافة الرسمية، وأهمّل الثقافة الشفوية/الشعبية، والتي كان قد خصص لها حيزا بسيطا في الفصل الرابع من كتابه الثاني،<sup>3</sup> وقد ورد ذلك عرضا، لأنه، كما يذكر، ليس الغرض منه دراسة هذا الشعر في حد ذاته، لأن ذلك من اهتمامات دارسين آخرين. ويذكر أن الشعر الشعبي ينتشر في حالة ضعف الثقافة الأدبية في البلاد، ويضيف، أن الشعر الشعبي "من الناحية الجدلية المحضّة، ضد الثقافة ودليل على انحطاطها"<sup>4</sup>.

ولكن سعد الله يعترف بعد ذلك بأن الشعر الشعبي طغى في العهد العثماني، ونشر الفرنسيون نماذج متعددة منه، لفهم ظروف العهد العثماني؛ ليعترف سعد الله بأهمية هذا اللون من التعبير في قوله، بعد ذلك: "حقا إن الشعر الشعبي قد سجل كثيرا من الحوادث السياسية والعسكرية، كما كان سجلا للنضال الاجتماعي والاقتصادي في البلاد." ويضيف أن الشعر الشعبي من الناحية التاريخية كان أشمل وأقرب إلى الحقيقة من الشعر الفني...<sup>5</sup> ذلك أن هذا الشعر يسجل ما يجري في كل المستويات، بينما يهتم الشعر الرسمي بالسلطة، يمدحها أو هو شعر مديح ديني بحت. وقد وصلنا ذكر بعض الأحداث عن طريق هذا التعبير الشعبي البسيط حين غاب التسجيل التاريخي الرسمي.

وقد بقي الأستاذ أبو القاسم سعد الله يشتغل بالمركز المذكور إلى أن وافاه الأجل يوم 14 ديسمبر 2013. وقد التقيت بالأستاذ في المركز عبر محطتين:

1- حول الشيخ عبد القادر الياجوري: ذهبت لزيارته في مكتبه بالمركز سنة 2007 أو 2008، فاستقبلني أحسن استقبال، واغتنتم الفرصة لأسأله عن الشيخ عبد القادر الياجوري إن كان قد ترك مذكرات عن سيرته، وبخاصة وأن الأستاذ أبا القاسم ابن بلدته وادي سوف.

كان الشيخ الياجوري عضوا نشيطا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تقلد عدة وظائف كمدرس وكمدبر بكل جدارة واستحقاق قبل الاستقلال في عدة جهات من الوطن. وقد تعرض للسجن والنفي من قبل السلطات الاستعمارية. كنت أرغب من الأستاذ أن يوجهني إلى ما أحجته، فأعلمني أنه كتب عنه مقالا في كتابه "خارج السرب"، ووعدي بإرسال نسخة من المقال عن

قريب. وهذا ما تم بعد حين، حيث تلقيت منه المقال بعد مدة قصيرة وهو مستل من مجلة الثقافة عدد 105-106/1995. تحت عنوان: "مجاهد من نوع آخر: عبد القادر الياجوري".

يذكر فيه الظروف التي حصل فيها على ملف الشيخ الياجوري سنة 1989 وكيف وضعه جانبا لأنه لم يكن ذلك من أولوياته آنذاك. ولكنه عاد إليه بعد سماعه بوفاة الشيخ في نهاية شهر أوت من سنة 1991، وبدأ الكتابة عن هذه الشخصية المجاهدة في ميدان التربية والتعليم والوعظ والإرشاد.

أما حاجتي في عبد القادر الياجوري فتعود إلى ذلك الموضوع الذي كتبته عن التعليم القرآني في الجنوب الغربي الجزائري قبل سنة 1962، والذي لم ير النور بعد. فقد كنت، خلال عملي الميداني، قد علمت أن الشيخ عبد القادر الياجوري، زار مدينة عين الصفراء بعد عودته من منفاه ببني عباس، والتقى بأعضاء من الجمعية الدينية لمسجد وسط المدينة، وأسأله عن التعليم القرآني في المدينة وعن وجود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيها؛ فأشاروا إليه بالتوجه إلى الباشاغا الخلافي في بلدة تيوت المجاورة لعين الصفراء الذي بيده الحل والعقد، وقد نتج عن هذا اللقاء، بين الباشاغا والشيخ الياجوري، تبرع الباشاغا بقطعة أرض وهبها لبناء مدرسة قرآنية ببلدة عين الصفراء؛ كان الدور الهام في القيام بهذا العمل النبيل للشيخ راجي عبد الرحمن<sup>6</sup>.

ورغم أن مقال أبي القاسم سعد الله عن الشيخ الياجوري لم يحتو على المعلومات التي كنت أبحث عنها، فإن مجرد استلامي للمقال يعتبر بحد ذاته تक्रما من أبي القاسم رحمه الله. وقد أشاد الأستاذ في مقاله هذا بالشيخ الياجوري وبمواقفه تجاه الإدارة الاستعمارية، وذكر أنه كان رجلا ولا كالرجال، ومجاهدا ولا كالمجاهدين. ويضيف: "لقد كان من أولئك العلماء الذين جمعوا بين الولاء للعلم والتربية وبين الإخلاص للفكر السياسي العملي الذي يخوض صاحبه غمرات المواجهة ضد خصمه مع تحمله في سبيل هدفه الشريف كل البلايا والحن". ويضيف سعد الله: "وأنا لست من جيل الشيخ ولكني من الجيل الذي جالسه وسمعه يتحدث أو يخطب، أو سمع عنه مجموعة من الأخبار من زملائه في التعليم ورفقائه في السجن أو من طلابه".

ويتحدث عنه، وهو في منطقة وادي سوف، فيذكر أنه بدأ يسمع "اسم الشيخ الياجوري منذ نهاية الأربعينيات. وكان الذين ينطقون باسمه في قمار بين هامس به متعاطف مع صاحبه، وبين مُجاهر به ناظم على صاحبه مع شيء من الشماتة". ويذكر أنه كان عضوا عاملا في جمعية العلماء

منذ ميلادها سنة 1931، مثلما ذكر صاحب الترجمة عن نفسه. وقد عانى الشيخ الكثير من المتابعة والسجن والنفي. حيث يذكر سعد الله أن الشيخ كان قد عاش في تراب النواحي الغربية منذ سنة 1940، حين كان ينتقل من سجن إلى سجن ومن إقامة جبرية إلى أخرى في معظم المدن الوهرانية<sup>7</sup>. وعن وجود عبد القادر الياجوري في منطقة الجنوب الغربي يذكر أبو القاسم سعد الله، اعتماداً على سيرة ذاتية بخط يد الشيخ نفسه مكتوبة على ورق كبير.. أنه "في العشرين من يناير 1942، أثناء حكم فيشي، أخذه الدرك وسلمه للشرطة العسكرية التي حملته إلى سعيده، حيث أودع السجن بثكنة اللفييف الأجنبي، ومن سعيده إلى بشار، حيث رُجَّ به في السجن العسكري أيضاً. ثم نُفي من بشار إلى بني عباس التي قضى فيها ثلاثة وثلاثين شهراً تحت الإقامة الجبرية، وكانت بني عباس تابعة للسلطة العسكرية الاستبدادية، كما يقول".

ويواصل سعد الله قائلا: "غير أن وضعه قد تغير قليلاً بحلول أكتوبر سنة 1944، عندما حُكموا عليه بالخروج من بني عباس ومغادرة المناطق التابعة للحكم العسكري، ولكنهم منعه من الرجوع إلى مسقط رأسه، ودامت حالته هذه إلى عشية أحداث الثامن مايو 1945".

وقد عمل بعد الاستقلال في وزارة الأوقاف ليعود إلى مجاله المفضل وهو التعليم، فالتحق بثانوية ابن باديس بوهران، التي بقي بها إلى أن أُحيل على التقاعد سنة 1977. وما زلت أذكر، وأنا تلميذ ثانوية العقيد لطفي في الستينيات من القرن العشرين، ذلك الأستاذ الوقور المعمم بلباسه التقليدي يدخل ويخرج من تلك الثانوية الكبيرة بحي المدينة الجديدة.

2- كراسات المجلس: اغتنم الأستاذ وجودي بمكتبه بالعاصمة، ليمدني بكتابين قام بدراستهما وتحقيقهما مؤخراً. كما كلفني بتوزيع عشر نسخ من كل واحد من الكتابين لأساتذة قسم التاريخ بوهران، وهذا ما فعلته بعد عودتي إلى وهران. والكتابان هما:

أ- إتحاف القارئ: وهو عبارة عن مؤلف من مؤلفات ورسائل الشيخ محمد الطاهر التليلي المتوفى سنة 1426هـ/2003. وقد سُمي هذه الرسالة بـ: "إتحاف القارئ بحياة خليفة بن حسن الأمقاري" والتي ترجم فيها للشيخ خليفة بن حسن الشهر بنظمه لمتن سيدي خليل في الفقه المالكي، والمتوفى سنة 1207هـ/1792م. وقد قام أبو القاسم سعد الله بتحقيق الرسالة والتعليق عليها<sup>8</sup>.

وقد جاءت الخطة التي اعتمدها الأستاذ في تحقيقه كالتالي: مقدمة المحقق عن ظروف التحقيق فمقدمة للمؤلف أتبعها بفصل أول عن حياة المؤلف خليفة بن حسن الأمقاري (نسبه - ولادته -

شيوخه - تلامذته - وفاته - ذريته). وفصل ثان عن تراثه العلمي المتمثل في الفقه المالكي والأدب العربي وبخاصة كتابه الشهير بـ "جواهر الإكليل نظم مختصر خليل". والفصل الثالث يتضمن "ما قيل فيه وإيجازاته وبعض أخباره". وأنهى الكتاب بملحق فقهارس الأشخاص والأماكن والكتب والدوريات. وذلك في 85 صفحة.

ب- رسائل في التراث والثقافة: هو عبارة عن مراسلات الشيخ المهدي البوعبدلي (1907-1992) أرسلها إلى سعد الله حين كان يجمع مادة تاريخ الجزائر الثقافي، وقد حصر سعد الله تلك الرسائل بعشرين رسالة. "يمكن للدارس أن يستشف (منها) حياة وأفكار الشيخ المهدي البوعبدلي نفسه: رأيه في علماء السلطة وفي الطرق الصوفية وفي التراث الثقافي وفي التقدم البشري وفي الإنسان والحضارة المعاصرة.."<sup>9</sup>

وقد اتبع الأستاذ الحقن الخطة التالية: المقدمة وقد عرف فيها بخطة الكتاب وبكيفية حصوله على المساعدة من المهدي البوعبدلي، وتحدث عن شخصية صاحب الرسائل، وعن العلاقة بين الرجلين، وعن كرم الشيخ في تزويد الأستاذ بالوثائق التي طلبها منه، وهو ما يثبت عكس من يتداول عنه بشحه في المساعدة. ويبين في هذه المقدمة أن غرضه من نشر هذه الرسائل ليس التعليق عليها وإنما القصد هو:

1- الكشف عن بعض معارف الشيخ المهدي.

2- التعريف بأسلوب الترسل الجاري بين العلماء في هذا العصر.

3- عرض رسائل الشيخ للباحثين للاستفادة منها في مستقبل الأيام.

أتبعها بدراسة عامة لرسائل الشيخ المهدي البوعبدلي تحت عنوان: "دراسة لرسائل الشيخ المهدي البوعبدلي"، اختارها وخصوصياتها وبعض أخطات من حياة الشيخ. وفي العنصر الموالي الذي وضعه تحت عنوان "محتوى الرسائل" استعرض فيه مضمون الرسائل المبعوثة إلى الأستاذ من قبل الشيخ، وقد جاءت في ستة عشر رسالة، أي أنه تحدث عن مضمون الرسائل واحدة بعد أخرى، وتعرض لنصوص الرسائل كما هي بأسلوب الشيخ المهدي، مؤرخة وتحتها إمضاء الشيخ. وأخيرا جاء الملحق ويتضمن ثلاث رسائل عثر عليها الأستاذ بعد انتهائه من دراسة الرسائل السابقة ليكتمل بذلك العدد إلى عشرين رسالة، مبينا ميزة هذه الرسائل الثلاث لكونها تحتوي على

معلومات ثقافية تاريخية مفيدة. وأهى العمل بفهارس الأشخاص - الأماكن - الكتب، والكتاب في مجموعته يحتوي على 161 صفحة، أما الخاتمة فغير واردة.

ثالثاً: تكريم الأستاذ بقسنطينة سنة 2004: نظم مختبر الدراسات التاريخية والفلسفية بجامعة منتوري بقسنطينة ندوة علمية دولية (خامسة) حول الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية لشيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله يومي 20-21 ذو القعدة 1424هـ الموافق لـ 12 و 13 جانفي 2004 بمقر المختبر وبقاعة المحاضرات الكبرى لجمع كوحيل لخضر.<sup>10</sup> وقد افتتح رئيس الجامعة الندوة كما اختتمها هو نفسه.

شارك في الندوة باحثون وأساتذة من الجزائر ومن بعض الأقطار العربية. وقد انعقدت الندوة في ثمان جلسات كان المحتفى به حاضراً فيها كلها. وكان يتلقى الإشادة مرات والنقد تارة أخرى، بروح علمية وبصدر رحب. وكان يشارك بالتدخل من حين إلى آخر مدافعاً عن رأي أو موضحاً لفكرة، وبخاصة قضية رفضه لمنصب الوزارة الذي اقترح عليه ذات مرة، إلى جانب هيئته من السلطة أو عدم نقدها صراحة، أو إعطائه الصدارة لجمعية العلماء في بداية الثورة التحريرية.

وقد تنوعت المداخلات حول مواضيع متعددة، منها مناقشة صفته كمؤرخ الأجيال وعن كتاباته السياسية ومواقفه منها وعن منهجه الأكاديمي، وعن أعماله في الحركة الوطنية وعن خطابه التاريخي والعوامل المؤثرة فيه. وعنه كمحقق وناقد وعنه كأديب ومفكر ومبدع، وعن الغربة والحنين في شعره، وعن مؤلفاته وترجماته، وعن أدب الرحلة عنده، وعنه في التصوف، وبعض المقارنات بينه وبين طه حسين وبينه وبين مصطفى الأشرف، وغير ذلك من المواضيع الشيقة الهادفة.

ومن الجلسات الخاصة مع الأستاذ سعد الله ما تم تخصيصه له، من ذلك تنظيم دردشة مع الختفى به أمسية اليوم الأول (12 جانفي) بعد الانتهاء من مناقشة المداخلات. وفي يوم الأربعاء 14 جانفي 2004 على الساعة 9.30 أقيم حفل تكريمي على شرف الختفى به بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية فسنطينة.

كان موضوعنا الذي شاركنا به في الندوة هو: "البعد الإسلامي في كتابات سعد الله" وضحنا فيه توجه الأستاذ الإسلامي فيما كان يكتب. وقد ذكرنا أن البعد الإسلامي في كتابات سعد الله واضح للعيان، فقد ترعرع في بلدته بحفظ القرآن الكريم وتزود بالعلوم الشرعية من الزيتونة،

وكتب في صحيفة البصائر التابعة لجمعية العلماء الجزائريين في مطلع الخمسينيات، وسافر إلى القاهرة بمساعدة الجمعية، ليلتحق بكلية الآداب والعلوم الإسلامية هناك، والتي حصل منها على شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

ويمكننا التمثيل لبعض هذا التوجه فيما كتبه عن الوحدة الإسلامية، حين يقول: "كل المسلمين يطمحون إلى تحقيق هذا الحلم لأن فيه قوتهم وعزهم، ومنعة الإسلام وحصانته. والدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية فريضة على كل مسلم من الوجهة الشرعية والسياسية..."<sup>11</sup> وهو يرى أن قوتنا تكمن في تلك الوحدة الكبيرة التي جمعتنا قرونا عديدة في سالف الأزمان.

وأنه يدافع عن الاسلام كمقوم أساس للهوية الجزائرية، وهو يقرنه أحيانا بالعربية والعروبة، ويتحدث عنه حيناً آخر كبعد مستقل بذاته، وذلك بحسب المقام. وهو يستشهد بالآيات القرآنية في عدة مواطن، ويستخدم مصطلحات وتعابير إسلامية، تتخلل كتاباته. ويتضح ذلك في كل كتاباته، سواء كانت أدبية أم تاريخية أم فكرية عامة.

كان شعار الندوة هذه الأبيات التي وضعها المنظمون إلى جانب البرنامج العلمي للندوة، وهو:

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| ما الفخرُ إلا لأهل العلم أنهُم | على الهدى لمن استهدى أدلاء    |
| وقدُرُ كل أمرٍ ما كان يُحسنه   | والجاهلون لأهل العلم أعداء    |
| فُرْ بعلمٍ تعيش به حيا أبداً   | الناس موْتى وأهل العلم أحياء. |

رابعا: زيارته لقسم التاريخ بجامعة وهران سنة 2005: بناء على دعوة من قسم التاريخ بجامعة وهران، قام الأستاذ أبو القاسم سعد الله بزيارة لهذا القسم سنة 2005 في مقره آنذاك بمركز التكوين الإداري بحي سيدي الحسني بوهران. وكان الحضور هام من الطلبة ومن الأساتذة للمكانة التي يتبوأها الأستاذ لدى المثقفين بعامة وعند الطلبة بصفة خاصة. كان موضوع مداخلته بحسب ما أذكر هو "المراكز العلمية بالبلاد المغاربية". وقد لقي الموضوع مناقشة هامة من قبل الطلبة والأساتذة على حد سواء.

كان الأستاذ جد حساس تجاه معاملته، فقد استقبلناه في مطار السانيا آنذاك -مطار أحمد بن بلة حاليا- كنت من المستقبلين باعتباري نائب رئيس القسم مكلف بما بعد التدرج والبحث العلمي، رفقة السيد محمد موفقس رئيس القسم في ذلك الحين. وأوصلناه إلى نزل "الرئيس" الذي يأوي إليه كل الأساتذة والباحثين ضيوف كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية سواء جاءوا

باعتبارهم أعضاء مناقشين في لجان الماجستير والدكتوراه أو محاضرين مدعويين في إطار النشاطات العلمية للقسم والكلية.

وقد تركنا الأستاذ في التزلج ليستريح من وعناء السفر، على أن نعود إليه نهار الغد لننقله إلى القسم. وفي الغد وخلال المناقشة عبر الأستاذ عن استيائه لتركه وحيدا في التزلج، في الوقت الذي كنا نظن أن ذلك كان سيريجيه. ولكن جاء الأمر معاكسا لما اعتقدناه. ومما قاله في هذا الشأن، ولا يزال الجميع يذكره: لقد تركتموني كما ترك إخوة يوسف أخاهم وحيدا في الجب.

ولكي نعيد للأستاذ حيويته ونشاطه جلنا به مختلف المواقع السياحية بوهران صحة عدد من أساتذة القسم، كان أهمها زيارة جبل مَرَجَاوُ الحاذي للمدينة، وقد مورنا بسنّا كُرُوزُ وأطللنا على مدينة وهران ومينائها من أعلى الجبل، كما زرنا مختلف مواقع هذا الجبل، وبخاصة مساحته المتسعة على سطحه العلوي، مما أثلج صدر الأستاذ وأذهب عنه الكدر والسّامة التي ألت به في الأمس دون قصد منا.

كان قسم التاريخ موجودا، آنذاك مؤقتا، بمركز التكوين الإداري الكائن مقره بحي سيدي الحسني، ولم تتركه الجامعة إلا بعد أن تأكد للجميع أن الولاية لن تنازل عن المكان لصالح جامعة السانبا التي كانت تعيش اكتظاظا في كل الاختصاصات. وكان هذا الاستقرار قد تم هناك سنة 1990 بعد أن أصبح معهدا مستقلا عن الأقسام الإنسانية والاجتماعية. وسيبقى في مركز التكوين الإداري حتى سنة 2006 لينتقل إلى مقره الجديد بجوار جامعة محمد بوضياف للعلوم والتكنولوجيا بحي إيسطو (USTO) إلى جانب قسم المكتبات وعلوم الإعلام والاتصال (علوم إنسانية).

خاتمة: مما سبق نصل إلى بعض النتائج التي توضح لنا شخصية المؤرخ الجزائري الكبير، من خلال ما لمسناه منه وما استخلصناه من مخالطته، وهي كالتالي:

- جدية الأستاذ أبي القاسم سعد الله في العمل وإخلاصه فيه.
- كرمه العلمي ومساعدته لكل طالب علم.
- رفضه للمجاملة في المجال العلمي.
- حساسيته المفرطة تجاه أية معاملة قد يرى فيها نوعا من المساس بكرامته.
- صراحته في البوح بما في نفسه دون مجاملة أو مدهانة.
- رفضه للأبهة والمناصب العالية وتفضيله لمهمة العلم دون سواها.

- تمتعه بمكانة علمية واحترام كبيرين من قبل المثقفين.

وبذلك حاز هذا الأستاذ على تلك المكانة بفضل جهوده العلمية وتفانيه في العمل وحيه له دون شكوى أو تبرم، ومات قريح العين بعد أن أتم كثيرا من الأعمال التي كان يود إنجازها، أما أنه أنجز كل أهدافه فهو ما لا يتحقق لأي كان.

### الهوامش:

- 1- أحمد طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، الجزء الثاني، دار القصة، الجزائر 2007، ص: 06.
- 2- رابح لونيسي، نداء إلى طلبة أبي القاسم سعد الله.. من أجل الوفاء لروحه. جريدة الخبر ليوم 03-01-2014.
- 3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العشر إلى الرابع عشر الهجري، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص: 323-330.
- 4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، ص: 324.
- 5- المرجع نفسه، ص: 325.
- 6- كتبنا عنه مقالا بجريدة الجمهورية بتاريخ 12 و13 مارس 2008.
- 7- أبو القاسم سعد الله، مجاهد من نوع آخر: الشيخ الياحوري، مجلة الثقافة، عدد نوفمبر- فيفري 105-106 (1995).
- 8- أبو القاسم سعد الله، إنحاف القارئ، سلسلة كراسات المجلس، العدد 4، ربيع 1248هـ/أفريل 2007م منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر 2007.
- 9- رسائل في التراث والثقافة، سلسلة كراسات المجلس العدد 5، ربيع 1248هـ/أفريل 2007م، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر 2007، ص: 6.
- 10- كان عبد الكريم بوصفصاف هو مدير المختبر، والذي كان حاضرا بقوة عن طريق التدخل من حين لآخر.
- 11- أبو القاسم سعد الله أفكار جامعة المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1988. ص 160.